العدد 1776 - السنة السادسة
الجمعة 30 ربيع الاول 1435 - الموافق 31 يناير 2014
Friday 31 january 2014 - No.1776 - 6th Year

آل ديكسون..

حكاية عشق أوروبي للكويت

- ديكسون رضع في صغره لدى آل مصرب من السبعة من عنزة ما جعله أخاً للبدو، وتعلم من طباعهم
- بيت ديكسون قام ببنائه المرحوم سليمان إبراهيم البحوه

كتب إبراهيم الخالدي

«بيت ديكسون».. أو «بيت أم سعود» كما نسميه ما زال يقف شاهدا قرب شاطئ البحر في العاصمة الكويتية «مقابل سوق شرق»، وهو يحكى قصة أثنين من الأجانب قدما إلى الكويت، فأحباها، وبادلهما الكويتيون الحب.

تبدأ القصة عندما جاء هارولد ديكسون، وزوجته السيدة فيوليت إلى الكويت ليتولى الزوج مهام منصبه كسابع معتمد بريطاني في الكويت في 22 مايو 1929م «12 ذي الحجة 1347هـ»، وكان الزوج قد ولد في بيروت في 4 فبراير 1881م «4 ربيع الأول 1298هـ»، والتحق بالجيش البريطاني سنة 1903م، وعين حاكما سياسيا في جنوب العراق سنة 1916م، وبعد ذلك صار معتمداً سياسياً في البحرين سنة 1920م ثم نقل بذات المنصب إلى الكويت، واستمر معتمداً فيها حتى 4 فبراير 1936م «11 ذي القعدة 1354هـ»، ورغم انتهاء مهمته في الكويت إلا أنه استمر يسكنها، ويعمل منسقاً بين الحكومة البريطانية، وشركة النفط حتى توفي في 15 يونيو 1959م «8 ذي الحجة 1378هـ»، ودفن في الأحمدي كما أوصى ثم نقل جثمانه فيما بعد ليدفن في ساحة السفارة البريطانية.

وتضم المكتبة التاريخية للكويت كتابين من تأليف هارولد ديكسون هما «عرب الصحراء، والكويت وجاراتها» ضمنهما الكثير من الحكايات والحوادث التي عايشها بنفسه، وكان شاهد العيان الوحيد على بعضها كما يلحظ قارئ كتبه اهتماماً ملحوظاً بالقبائل، وأنسابها، وتواريخها، وهو في هذا المجال مصدر موثوق يروي عن أصحاب الاختصاص بدقة وموضوعية «في الغالب».

واشتهر ديكسون بكنية «أبي سعود» حيث أنه سمي ولده الأكبر بسعود تلبية لرغبة الملك عبد العزيز آل سعود، فقد بشر ديكسون بالمولود خلال مؤتمر العقير الذي حضره مع الوفد البريطاني، وضم الملك عبد العزيز سنة 1920م كما أن له بنتا تحمل اسماً عربياً هو «زهرة»، وقد ولدت زهرة في الكويت، وعاشت فيها إلى أن تزوجت، وغادرت إلى بريطانيا، ولها كتاب مترجم إلى العربية بعنوان «الكويت كانت منزلي».

أما السيدة ديكسون «أم سعود»، فقد قدمت إلى الكويت مع زوجها، واستمرت تقيم في الكويت طوال عمرها حتى بعد وفاة زوجها، ولم تغادر الكويت إلا عند حدوث الاحتلال العراقي الغاشم سنة 1990م، فغادرت البلاد إلى لندن حيث توفيت قبيل تحرير الكويت سنة 1991م، وصدر لها أيضا كتابان هما «أزهار الكويت والبحرين، وأربعون عاما في الكويت»، وسجلت في الأخير مذكراتها كما شاركت زوجها في كتابة بعض موضوعات كتبه فيما يتعلق بالنساء، والنباتات، والحيوانات البرية.

أما منزل الأسرة الشهير «بيت ديكسون»، فيعد من المتاحف المعروفة في الكويت، وقامت إدارة المباني الأثرية بالمتحف الوطني في الكويت بعملية ترميم شاملة له سنة 1992م، وقد حضرت عملية الترميم تلك «الحديث لكاتب الموضوع إبراهيم الخالدي»، والتقيت بمدير إدارة المباني الأثرية عبد العزيز بهمن الذي أكد لي أن الترميم يقوم على أساس أعادة البناء كما كان عليه بحيث لا يغير شيء في المنزل سوى التالف منه مشيراً إلى أن البيت يحتاج إلى ترميم جذري خاصة، وأنه هجر لمدة سنتين.

وحول تاريخ البيت قال بهمن أنه أسس سنة 1910م، ورمم جزئيا في الثلاثينات، وتم إضافة الجزء الشرقي له منوها إلى أن مساحته تبلغ سبعمئة وعشرة أمتار مربعة، ويحتوي على ثلاثة أجزاء هي: «المبنى الرئيسي، والملحق الشرقي، وحوش الغنم»، ومجمل الغرف في البيت بما فيها الصالات والمرافق الأخرى تبلغ «32» غرفة، ويملكه منذ زمن طويل ورثة الشيخ مبارك الكبير حتى في الأيام التي كانت تسكنه فيها أم سعود ثم حولت ملكيته بعد التحرير إلى المتحف الوطني.

وكان يشرف على عملية الترميم سنة 1992م آخر جيل البنائين الكويتيين القدماء ، وهو «محمد بن سليمان البحوه»، والذي أشرف من قبل على إعادة بناء بوابة المقصب التي هدمها المحتلون بالكامل كما كان في نفس الفترة يشرف على ترميم البوابات الثلاث الأخرى : «الشامية، والشعب، والجهراء».

وقد التقيت بالبحوه وقتئذ، وهو رجل يبلغ من العمر الخامسة والسبعين، وكان يشرف بنشاط على العمال الذين ينفذون توجيهاته لإتمام ترميم بيت ديكسون بالطريقة القديمة ذاتها، وقال لي البحوه أن بيت ديكسون هذا قام ببنائه والده المرحوم سليمان إبراهيم البحوه، والمرحوم راشد البحوه ليكون منزلا للتاجر الكويتي المعروف شملان بن علي آل سيف ثم اشتراه منه حاكم الكويت السابق الشيخ أحمد الجابر.

ويتذكر محمد البحوه هارولد ديكسون، فيقول أنه كان يتقن العربية كأحد أبنائها، وكان يركب الخيل مع زوجته التي كانت هي الأخرى تتقن العربية لدرجة أن من يحادثها يعتقد أنها من نساء البادية، ويضيف أنه بني ذات يوم منزلا لديكسون في منطقة خيطان مقابل خمسة آلاف روبية، وكان مبلغا كبيراً في تلك الأيام.

وحول الأشراف على عمال البناء قال البحوه أنه يدرب العمال على طريقة البناء القديم، وتجهيز أدوات البناء، فمثلاً يصنع لهم لبنة الطين الأولى ثم يقلدونه، وحول الأدوات المستخدمة قال أنها الطين الأحمر الذي يتم تخميره لمدة أسبوعين، وصخور البحر، والجندل، والباسكيل، والبواري «أنواع من الخشب»، والجص «الجبس»، وأكد أن الترميم الذي بدأ في 25 أغسطس 1992م «25 صفر 1413هـ» سوف يستغرق مدة شهرين.

وتجدر الإشارة إلى أن ترميماً آخر أجري فيما بعد لبيت ديكسون على أسس الترميم الحديثة بإشراف المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الذي نقلت إليه مسؤولية البيت، وافتتح كمتحف فلكلوري. ومن طرائف ديكسون، فنظراً لكونه قد نشأ في بيروت، ورضع في صغره لدى آل مصرب من السبعة من عنزة مما جعله أخاً للبدو، وتعلم من طباعهم، وأخذ من شيمهم الكريمة، ومنها حماية الدخيل، وحق الجار، فقد جرت له حادثة خلال إقامته في الكويت، وهو يرويها في كتابه «عرب الصحراء»، فيقول :

«يسعدني أن أقول أنني دعيت مره لنجدة شخص كان جاري وقصيري، وقمت بواجبي آنذاك بشكل مقنع، وقد وقعت الحادثة كما يلي :

كنت في الكويت في شهر الحر «يوليو» من عام 1932م ، وقد اعتاد الجميع النوم على سطوح البيوت ليلاً أما أنا، فكنت ليلتها نائماً في مقر عملي، وبجانبه تسكن امرأة بدوية هي مطلقة تاجر لؤلؤ مشهور، وتنحدر من أصل بدوي نقي، وكان زوجها قد طلقها بسبب رغبته بالزواج مرة أخرى، وتعيش المرأة مع ابنتها البالغة من العمر خمسة عشر عاماً هي كل ما تملكه في هذا العالم، ومبعث فخرها، وقرة عينها.

يقع السطح الذي كنت نائماً فيه بمحاذاة سطح بيت تلك المرأة إلا أن الأخير كان يرتفع عن مكاني عدة أقدام، ولم تقم المرأة باستخدام سطحها للنوم كونه ملاصقاً لسطح مقر عملي. كان ابن عم الفتاة قد تقدم بطلب يدها للزواج بأحقيته في ذلك حسب القانون والعادات لكن الأم رفضت بإصرار وإثبات بحجة أن ليس لها غير ابنتها تخدمها، ودونها ستجوع، وبعد ضغوط عديدة وافقت الأم بشرط أن تحصل على تعويض مالي كاف عن السنين والنفقات التي تكبدتها حتى ربت ابنتها. أما الواقع، فهو أنها كانت تريد المال لتكفل لنفسها حياة كريمة.

ورفض ابن عم الفتاة وقومه طلبات الأم، واشتكوها للشيخ الذي قرر أن الشاب على حق، وأمر الفتاة أن تنتقل إلى بيت أحد أقاربها لتتم مراسيم الزواج هناك، وحضر فداوية الشيخ إلى بيت المرأة أربع مرات، وكانت في كل مرة ترفض السماح لهم بالدخول علماً بأن القانون كان لا يسمح لهم بالدخول عنوة، فهددوها بأنهم في المرة القادمة سيقتحمون البيت سواء سمح لهم القانون أم لا لأخذ الفتاة إلى بيت أقاربها.

ووقع الحادث فعلاً، ففي ليلة حارة غير مقمرة كنت نائماً خلالها على السطح، وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة مقرب منتصف الليل عندما استيقظت على صوت قادم من ظلام ينادي: « يا أبو سعود .. يا أبو سعود استيقظ، واسمع»، فاستيقظت، ولمحت من يناديني همساً من السطح المجاور على بعد عدة ياردات، فقلت: «من؟»، فقال الصوت: «جارتك.. قصيرتك. أنا بنت فلان، وأناشدك أن تصغي إليّ». وبعد أن حكت قصتها أردفت قائلة: «يا أبا سعود أنا في أعمق الحزن، وأتوسل إليك أن تساعدني، فأنا جارتك»، فأجبتها: «وما الذي ينبغي علي عمله يا أختاه؟» .

فقالت: «اذهب غداً للشيخ أحمد الجابر «حاكم الكويت وقتئذ»، وأخبره عن العهد بيني، وبينك، ودافع عني، وعن ابنتي لأنها إن أخذت مني، فسأموت».

ولكنني كنت أعلم أن لا حق لي في ذلك، وليس لي عليها سلطان إلا أنها أجابتني بقولها أنها لا تعرف سوى أني جارها، والقانون يلزمني بمساعدتها، وانتهى الأمر بوعدي لها بأن أفعل ما طلبته.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى الحاكم، وقابلته ، واعتذرت له عن تدخلي فيما لا يعنيني ثم أشرت له أن جارتي تسولت بكل الوسائل أن أساعدها، ولأني أفهم توسلاً كهذا، فاني أرجو سموه أن ينظر إليها بعين العطف.

وكان لرواياتي أشد الأثر لدى الشيخ، ومما زاد في سعادته أن أتوسل له من أجل واحدة من رعاياه المسلمين ضد أحد قراراته، فتراجع عن قراره ذاك قائلاً: « يا كولونيل ديكسون إن قانون القصارة هذا مقدس لدينا نحن العرب، وكونك تعرفه وتفهمه بعمق أعتبره امتيازاً لي. الفتاة لك، فأعدها لأمها، وقل أن الشيخ أحمد تراجع عن قراره الذي اتخذه سابقاً، فكما أصغيت أنت لتوسل المرأة لأنها جارتك عليّ أن أصغي لك، وأجيبك إلى طلبك لأعبر لك عن عمق شعوري لأنك شرفت امرأة من مواطني بمساعدتك كما شرفت قانون القصارة ».

يقول ديكسون: « تأثرت جداً بكلمات الشيخ، ومضى وقت طويل قبل أن أنسى كلماته، فقلت ما أمر به الشيخ إلى جارتي، ولم أرها منذ ذلك اليوم إلا أنها كانت تعبر عن امتنانها بلطف دائماً عن طريق خدمي ».

هذا بالنسبة لديكسون الأب أما ابنته «زهرة»، والتي ورثت صفة الترحال عن أبويها الشهيرين، فحاولت السير على منوالهما، وتركت لنا كتاباً خفيفاً جميلاً بعنوان «الكويت كانت منزلي» يصور ذكرياتها في الكويت التي نشأت وترعرعت بها، وعايشت الحياة البسيطة التي أولع أبويها بها كما أنها كانت شاهدة على تطور البلاد، وسيرها الحثيث نحو المستقبل. تتحدث زهرة ديكسون في الكتاب عن زيارتها للبلاد سنة 1946م «1365هـ» بعد غياب امتد عشر سنوات تزوجت خلالها في بريطانيا، وأسمت تلك السنة بسنة التغيرات الكبير إذ تم فيها تصدير أول شحنة من النفط الكويتي، وبذلك بدأت البلاد تخطو نحو تغيير جذري في اقتصادها، وبالتالي نمط حياتها، وطبيعة مجتمعها.

وفي فصل بعنوان «أصدقاء كويتيون» تحدثت زهرة عن علاقات أبيها ديكسون الذي كان يعمل وقتئذ مستشاراً في شركة نفط الكويت بعد أن ترك العمل السياسي، وتذكر أصدقاء والدها من البدو، ومنهم رجل من قبيلة آل مرة كان شكله « يعكس صورة أرستقراطية الصحراء بأجلى مظاهرها » كما تحدثت عن عبد الوهاب القطامي الذي جاء للسلام عليها، وهو ثري يملك بعض السفن كما أن زهرة توجهت بعد تلك الزيارة مع أمها لزيارة زوجة القطامي التي كانت تستعد وقتئذ للسفر للحج على ظهر الجمال.

ثم تحدثت عن سالم المزين صديق والدها، وزوجته عمشة، وابنتهما الوحيدة حصة التي بقيت من سبعة أطفال توفوا صغاراً، وكانت أسرتهم تضرب خيامها بالقرب من آبار الشامية في أيام الصيف بينما تنتقل إلى قلب الصحراء إذا حل الشتاء سعياً وراء المرعى لمواشيها.

وتقول زهرة عن المرأة العربية بشكل عام : «هي تجاري صنوها الرجل في مجالي الكياسة والاحتفاء بالضيف ، أما طبيعتها ، فمجبولة أبداً على البشاشة واللطافة ، والمرأة العربية معطاءة سخية إلى حد الإفراط إذا ما نزل بساحتها ضيف، وأقل ما يمكن أن ينعت به هذا السخاء هو أنها لا تدع مناسبة تمر مهما كانت طبيعة الزيارة دون أن تقدم الطعام والشراب لضيوفها».

وترحل بنا زهرة ديكسون إلى الجهراء عندما رافقت أبويها في زيارة إلى تلك القرية الزراعية، وفي الطريق مروا بالقصر الأحمر، وتل «فضيحة» المشهور ثم التقوا بالمرحوم هيف الحجرف، وقالت عن ذلك: «استقبلنا الأمير هيف بمنتهى الكياسة واللباقة، وغمرنا بفيض بلاغته، وناعم احتجاجه لزيارتنا المفاجئة، وإلا لكان قد أقام لنا وليمة فاخرة تليق بنا» .

ثم احتفى بهم الحجرف، وقاموا بعد ذلك بجولة في بساتين النخيل، ومزارع البرسيم المنتشرة في الجهراء. وعن التحولات التي عاشتها الكويت في السنوات العشر التي غابت فيها زهرة عن البلاد تذكر العديد من الأمثلة، فعن شاطئ الشويخ مثلاً نجدها تقول: «سوف أظل أفضل شاطئ الشويخ على سواه من شواطئ الكويت لأن نفسي تزخر بالذكريات عنه منذ عهد طفولتي أيام كنت أذهب إلى هناك لمراقبة الصيادين، وهم يصطادون السمك، فمنذ عشرين عاماً خلت كان هذا الشاطئ الواقع في الزاوية الغربية من مدينة الكويت يوحي بالعزلة لا يؤمه إلا عدد قليل من الصيادين. أما اليوم، فقد غدت الشويخ مسرحاً للأعمال، وتضج بالحياة بحركة مينائها الجديد فضلاً عن بناء بيوت حديثة فيها». وفي فصل آخر حمل عنوان «حفلة الشيخ ورقصة الحرب» تتحدث زهرة عن حفل عشاء أقامه الشيخ عبد الله المبارك في قصر الكائن في الصحراء «تقصد قصر مشرف»، ونجدها تفصل في ذكر المأدبة التي حضرها حاكم البلاد يومئذ الشيخ أحمد الجابر، وتصف فخامتها للدرجة التي دعتها للقول: «كانت الحفلة من الروعة والسخاء بحيث لا يخجل هارون الرشيد لو بعث حياً أن يولمها لمدعويه من ذوي الرتب الملكية».

وبعد أيام من هذه الحفلة حل عيد الأضحى المبارك الذي صادف في تلك السنة الثالث من نوفمبر، فخرجت زهرة مع أبويها إلى فناء السوق «ساحة الصفاة» لمشاهدة رقصة العرضة التي أقيمت بالمناسبة.

وتقدم لنا وصفاً عن ذلك، فتقول : « كان علم الكويت الأحمر يرفرف فوق الساحة الفسيحة التي خصصت لرقصة الحرب، وترجلنا من السيارة مجاهدين للوصول إلى وسط الحلبة المعدة للمتفرجين لكثرة ما احتشد من الناس حول الساحة، وهنا وجدنا سمو الشيخ عبد الله المبارك جالساً بين لفيف من الشيوخ على مقاعد خشبية. وكم كان منظر الشيوخ رائعاً إذ كانوا يرتدون أفخر ثيابهم، وعلى جنوبهم سيوفهم ذات المقابض الذهبية ».

وتمضي زهرة في وصف رقصة العرضة التي شارك فيها الشيخ أحمد الجابر، وأولاده، وأفراد الأسرة الحاكمة، وتمضي بعد ذلك في تقديم موضوعات أخرى في كتابها حول الصيد بالصقور، ورحلات الربيع، وغير ذلك.

وختاماً ، فإن زهرة ديكسون نمط خاص من الكتاب الأجانب الذين عايشوا المجتمعات العربية، وكتبوا من واقع هذه المعايشة، فهي ابنة البلد الذي ترعرعت فيه ثم تركته بعد الزواج كما أنها وإن لم تكن موهوبة في الكتابة والبحث مثل أبيها الأمر الذي يبدو واضحاً من مستوى كتابها «الكويت كانت منزلي» إلا أنها قدمت من خلال هذا الكتاب صورة جيدة عن الكويت في مرحلة التغيير، من المجتمع البسيط إلى المجتمع المدني معقد التركيب.

ديكسون وأحد زواره من البادية

- السيدة ديكسون قدمت إلى الكويت مع زوجها واستمرت تقيم فيها طوال عمرها
- اشتهر ديكسون بكنية «أبي سعود» حيث سمى بها ولده الأكبر تلبية لرغبة الملك عبد العزيز آل سعود

إبراهيم الخالدي

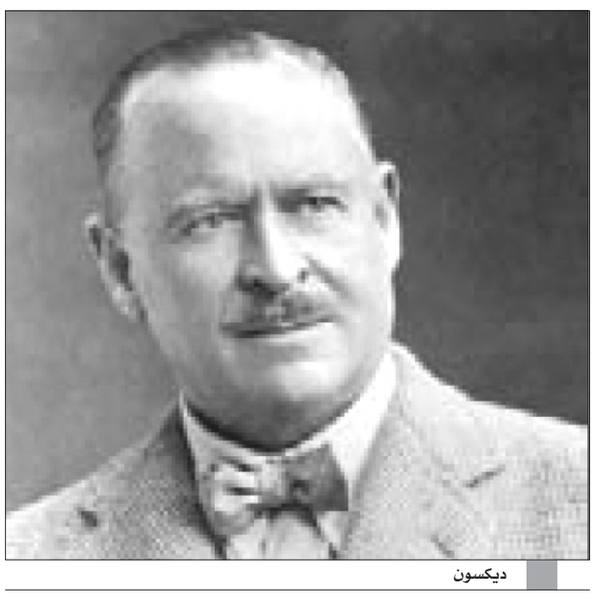

ديكسون

- زهرة ديكسون نمط خاص من الكتاب الأجانب الذين عايشوا المجتمعات العربية
- ولدت زهرة في الكويت وعاشت فيها إلى أن تزوجت وغادرت إلى بريطانيا

بيت ديكسون

ديكسون وزوجته في منزلهما